حورية توفيق مجاهد *

أفريقيا بين الحضور الإسلامي والمسيحي

(الصفحات ١٣٥ـ١٦٠)

ملخّص

هذا المقال يريد أن يبين حقيقة حضارية هامة هي إن انتشار الإسلام في أفريقيا وراءه الفطرة الإنسانية، ووراءه العقيدة الإسلامية التي تؤمن بالمساواة بين البشر، دون تمييز بين لونهم وعنصرهم. غير أن المسيحية كان وراءها مبشرون مرتبطون بدوائر استعمارية أوربية.

ومع ما بُذل من أموال طائلة في سبيل نشر المسيحية في أفريقيا خلال القرنين الأخيرين،ولكن، ولأسباب تتعلق بطبيعة الديانتين، كان انتشار الإسلام واسعًا حتى قيل إن «أفريقيا قارة الإسلام».

الجماعات التبشيرية المسيحية في أفريقيا هي بنفسها ساعدت على انتشار الإسلام لأنها مارست ما يسمى بالامبريالية التبشيرية في إشارة إلى سيطرة هذه الإرساليات على مقدرات الشعوب، وتسييرها وفقًا للسياسات الاستعمارية، والقضاء على أي تراث ثقافي قائم غير التراث الغربي المسيحي.

مقدمة:

أطلق على القرن التاسع عشر قرن التبشير؛ حيث إن بدايات القرون عادة ما

---

* ـ أستاذة في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة.

توحي ببداية عهد جديد، وكان تأثيرها في ذلك القرن على التبشير أن أنشئت ونشطت العديد من الجمعيات التبشيرية، خاصة البروتستانتية، التي أخذت المهمة التبشيرية بجدية في محاولة لنشر الإنجيل في أنحاء العالم، وكان الاهتمام الأساسي للإصلاحية الدينية البروتستانتية في أوروبا .وقد بدأ في النصف الثاني من تسعينيات القرن الثامن عشر إنشاء العديد من الجمعيات التبشيرية لنشر نشاطها في كافة أنحاء العالم.

أما في القرن العشرين فقد عرفت أفريقيا في مجال دراسة الأديان بقارة الإسلام؛ حيث لم تنتشر المسيحية وحدها ـ في ظل الوجود الاستعماري الذي سيطر على القارة بأكملها ـ بل إن الإسلام انتشر بمعدلات أكبر كثيرًا من تلك التي عرفتها المسيحية في القارة، على الرغم من الجهود المكثفة للتبشير من جانب النظم الاستعمارية.

ولقد مر الإسلام في انتشاره بالقارة ا لأفريقية بعدة مراحل، وضح في أولها الدور الكبير للهجرات العربية والفتوحات الإسلامية والتوسع فيها، ولكن في المراحل التالية انتقلت الدعوة وانتشار الإسلام إلى أيدي الشعوب الأفريقية الأخرى كالبربر والزنوج، خاصة السودانيين في منطقة الساحل (ساحل الصحراء).

وقد ظهرت في أفريقيا العديد من الزعامات الدينية ـ السياسية (مثل عثمان دان فوديو، وماء العينين القلقمي، والسنوسي، والمهدي، و الملا عبد الله حسن وغيرهم)، وجمع كل منهم بين الدعوة والجهاد في سبيل الإسلام ورفع رايته، ليس في منطقته المحلية فحسب؛ بل توسع نطاق الدعوة وتوسعت أرجاء الدولة التي قامت عليها باسم الإسلام.

ومثلت مصر المدخل الشرقي للقارة الذي جاء عبره الإسلام للقار ة، خاصة غربها، كما سبق أن جاءت المسيحية من قبل في القرن الأول الميلاد ي .

فقد دخل الإسلام مصروذلك في سنة ٦٤٠ م عن طريق سيناء وبرزخ السويس؛ ومنه تدفقت الجماعات الإسلامية والقبائل العربية وعلى رأسها بني هلال إلى شمال أفريقيا، ومنها انتشر للقارة.

ومن الملاحظ أنه على الرغم من أن الفتوح العربية أسهمت كثيرًا في انتشار الدين الإسلامي؛ حيث دخل الإسلام مع الجيوش الإسلامية إلى البلاد التي تم فتحها، إلا أن الإسلام أساسًا انتشرسلميًا وليس بحد السيف.

فالانتشار الفعلي للإسلام في أفريقيا وزيادة معدله بدت واضحة في الربع الأخيرمن القرن ا لتاسع عشر.ومن أهم ما يذكرفي هذا الشأن أن القوة السياسية هي التي فرضت المسيحية بالحرب، أما الإسلام فقد انتشرسلميًا وتغلغل بين الشعوب الأفريقية.

وقد عبرعن هذا بوضوح الكونت دي كاستري بقوله : «إن الإسلام لم يكن له دعاة متخصصون للقيام بالدعوة إليه وتعليم مبادئه كما في المسيحية، ولو أنه كان للإسلام أناس قوامون لسهل علينا معرفة السبب في انتشاره السريع، فقد شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام في حروبه ركبًا من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائروالقلوب بعد أن يكون هو قد باشر فتح المدن والأقاليم بجيوشه التي يصلي بها الأمم حرًبا لا هوادة فيها، ولكنا لا نعلم للإسلام مجمعًا دينيًا يتبع الجيوش فلم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان».

وعلاقة الإسلام بأفريقيا ترجع إلى بداية ظهورالإسلام في الجزيرة العربية في عهد الرسول(ص)؛ حيث بعث بهجرتين إلى بلاد الحبشة ـأكسوم في ذلك الو قت ـعلى أساس خوفه على متبعي الدين الإسلامي الجدد من بطش قريش، وسعيًا للأمن حيث عرف عن ملك الحبشة العدل.

ويفخرالأفريقيون بأن أول هجرة للمسلمين ـتدعيمًا للإسلا م ـكانت لأفريقيا

بالذات، تلك الهجرة التي سبقت الهجرة النبوية للمدينة وتأسيس الدولة الإسلامية بها.

ولكن يبدو أن تأثير هاتين الهجرتين كان محدودًا ومحليًا؛ حيث لم ينتشر الإسلام بحق في أفريقيا عامة إلا عندما دخل القارة من بابها الشمالي الشرقي إلى مصر بصحبة الجيش الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص (٢٠ هـ/٦٤٠ م).

ومن الملاحظ بالنسبة لانتشار الإسلام في أفريقيا إنه، وإن بدأ في أول الأمر على يد العرب النازحين من الجزيرة العربية؛ إلا أن راية الإسلام حملها منهم في المرحلة التالية الأفريقيون أنفسهم في المناطق التي احتكوا فيها بهم وقاموا بالدعوة للإسلام ونشره جنوبًا، والأمر ينطبق أيضًا على شرق أفريقيا.

وقد لعب التجار دورًا جوهريًا في هذا المجال، كما قامت حركات دينية، بل حروب دينية باسم الإسلام بزعامة أفريقيين مسلمين أصبحوا من أهم دعاته. وأقاموا دولاً إسلامية على غرار الدولة الإسلامية الأولى.

إن الظاهرة - الجديرة بالتسجيل - التي تسود هذه القارة وتجعلها جديرة باسم «قارة الإسلام» هي الزيادة السريعة والمطردة للمسلمين بها، فالإسلام يمثل قوة زاحفة من شمال القارة إلى جنوبها بصورة لا يعرفها أي دين آخر - في العصر الحالي - سواه، كما لا يعرفها الإسلام نفسه حاليًا في أية قارة أخرى. فقد تراجع الإسلام في أوروبا - التي لا يزيد عدد المسلمين بها عن ٢٠ مليون بما فيها (الاتحاد السوفيتي)، كما تقلص بالمثل في شمال آسيا، أما في جنوب تلك القارة فهو لا يزداد بأكثر من الزيادة الطبيعية.

ومن ناحية أخرى؛ فإن الظاهرة التي تحير الباحثين الغربيين؛ والتي بحثت في مؤتمر برلين السري في بداية القرن العشرين والخاص بالتبشير المسيحي في القارة الأفريقية وما تبعه من مؤتمرات؛ هي الانتشار السريع للإسلام في القارة؛ على أساس أن الإسلام - ليس فقط منتشرًا واستطاع أن يستقطب نحو نصف

السكان[1] ـ ولكنه أيضًا سريع الانتشار ويمثل قوة ديناميكية زاحفة، وذلك بتغلغله السريع في المناطق التي ما زالت تنتشر فيها المعتقدات التقليدية والتي يكرس التبشير المسيحي جهوده فيها.

وعليه؛ فالثقل النسبي للمسلمين من الناحية العددية بنسبة إلى مجموع السكان في أفريقيا أكثر منه في أية قارة سواها .فعلى الرغم من أن مسلمي آسيا يمثلون نحو أربعة أخماس مسلمي العالم، إلا أن نسبتهم لمجموع سكان آسيا لا تزيد عن ٢٠ .٪ ومن هنا يظل الثقل النسبي لمسلمي أفريقيا أكبر منه في آسيا.

ولقد قدر عدد المسلمين في أفريقيا في عام ١٩٣١ بنحو ٤٠ مليون نسمة، بينما قدر بعدها بعشرين عامًا في عام ١٩٥١ بنحو ٨٥ –٩٠ مليونًا ، (أي أن عدد المسلمين تزايد بأكثر من الضعف في عشرين عا مًا)، بينما يقدر عددهم حاليًا بنحو ٢٤٢ مليون تقريبًا، وتلك الزيادة المطردة من الواضح أنها تزيد عن معدل النمو الطبيعي حيث تصل نسبتها إلى ٦،٨٧ ٪ سنويًا في المتوسط وهو يزيد عن ضعف متوسط معدل صافي النمو في أفريقيا.

وهذه الزيادة العددية وإن كانت مهمة إلا أن الزيادة النسبية أكثر أهمية في هذه القارة، كما أثبتت ذلك الدراسات في الدول الغربية في أوائل الستينيا ت، حيث قدر أن من بين كل عشرة أفراد يعتنقون دينًا سماويًا عالميًا ، فإن تسعة منهم يعتنقون الإسلام و يعتنق واحد فقط المسيحية[2]؛ أي إن الإقبال على الدخول في الدين الإسلامي من جانب من يتبعون الديانات الأفريقية التقليدية المتوارثة يعتبر إقبالاً ملحوظًا يشدّ الانتباه.

إلا أن القول بأن أفريقيا «**قارة الإسلام**»وأن الإسلام انتشر بها كما أنه مستمر في الانتشار المطرد لا يعني انه منتشر وبنفس النسبة في كل أجزاء هذه القارة الواسعة التي تصل مساحتها إلى ما يزيد عن ٣٠ مليون كيلو متر مربع مكونة كتلة

أرضية تزيد على مساحة الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية والشرقية والصين مجتمعة، وممثلة لنحو خمس مساحة العالم، وتضم ٥٤ دولة مستقلة تمثل ما يقرب من ثلث الدول الأعضاء بالأمم المتحدة.

حقيقة أن الإسلام قد وصل إلى كافة أجزاء القارة :فما من دولة إلاّ ويوجد بها مسلمون إما أكثرية أو أقلية قوية، أو حتى أقلية ضئيلة، ولكن هناك مناطق يسودها الإسلام وهي تلك الواقعة شمال خط ١٠ شمالاً الذي يطلق عليه البعض اسم «**خط الإسلام**»، كما إنها تتمثل أيضًا في منطقة القرن الأفريقي (منطقة الصومال وبعض الأجزاء المجاورة في أثيوبيا وكينيا وكذلك في المناطق الساحلية في شرق أفريقيا).

ويلاحظ عامة أن الدول المستعمرة السابقة لم تعط صورة صحيحة عن توزيع الأديان في القارة الأفريقية، بل حاولت في معظم الأحوال إعطاء صورة منقوصة عن عدد المسلمين تأكيدًا لعدم أهميتهم النسبية والعكس بالنسبة للمسيحيين، ولا ننسى الرابطة التاريخية والعضوية بين الاستعمار الغربي والتبشير المسيحي من جانب مَنْ جاءوا من تلك الدول الغربية، ولا يزال هذا التقليد جاريًا في كثير من المصادر الغربية بعد الاستقلال، ومن جانب آخر فإن كثيرًا من بيانات الإرساليات التبشيرية والكنائس العالمية مبالغ فيها من حيث زيادة عدد المسلمين؛ حتى يمكنها إبراز مدى جهودها وضرورة دعمها في مواجهة خطر الإسلام في رأيها، ونفس الفكرة تنطبق على تقديرات المصادر الإسلامية عامة.

وبنفس المثل؛ فإن الدول المستقلة إذا كانت مسلمة يحرص زعماؤها على التقليل من أعداد غير المسلمين تأكيدًا لعدم أهميتهم النسبية، أما إذا كان المسلمون يمثلون أقلية في الدولة فهناك محاولات لإظهارها بصورة أقل؛ تأكيدًا لضعفهم النسبي .ومن ثم فمن البديهي في ضوء تلك الظروف ألا تكون هناك

أرقام دقيقة بل وأن تتضارب المصادر المختلفة .يضاف إلى هذا أن الكثير من الحكومات الأفريقية ـ في محاولة لعدم إبراز الاختلافات الدينية والجنسية والعرقية وغيرها ـ تغفل في تقديراتها الدقيقة وفي الإحصاءات ـ إن وجدت ـ تنويع السكان على تلك الأسس، مما يجعل التقديرات الرسمية أو الإحصاءات الرسمية غير متواجدة عن الأديان بالدقة اللازمة .ومما يزيد الأمر صعوبة في شأن التقديرات والبيانات في أفريقيا هو أنه عادة ما تستخدم عند المقارنة مصادر لا تتفق في سنة الأسا س، أو حتى تتقارب فيها، مما يجعل النتائج لا تتسم أيضًا بالدقة.

المسيحية:

وهي أقدم الديانات العالمية الكبرى المكتوبة في أفريقيا؛ حيث دخلت القارة في القرن الأول الميلادي، ومع هذا فهي أقل انتشارًا من الإسلام ومن الديانات التقليد ية، في أفريقيا، حيث يقدر عدد المسيحيين بنحو ١١ ٪ فقط من مجموع السكا ن[٣]. وقد ظلت ظاهرة عَرَضية ساحلية خاصة في غرب أفريقيا لفترة طويلة. فعلى الرغم من نجاحها الظاهر إلا أن المسيحية ظلت حركة أقلية في معظم أجزاء القارة على الرغم من أنها تتضمن القلة المتعلمة غالبًا .وإن كا ن ثمة جهود مكثفة ومنظمة تنظيمًا دقيقًا لنشر المسيحية قد جعلت سعيها الأساسي هو أن تنصر ٥٠ ٪ من الأفريقيين بنهاية القرن العشرين، وساعدها في ذلك ظروف الجفاف التي مرت بها الدول الأفريقية في الثمانينيات والتي فتحت المجال واسعًا للنشاط التبشيري من خلف المساعدات الإنسانية المباشرة.

وترجع جذور المسيحية في أفريقيا إلى القرن الأول الميلاد ي، حيث دخلتها عبر المدن الخمس الغربية في ليبيا ومصر، ومنها انتشرت إلى شمال أفريقيا، ثم إلى جنوب مصر في النوبة ومروي وكوش.

غير أن تغلغل المسيحية وانتشارها في أفريقيا عامة لم يتم إلا بعد ذلك بقرون طويلة، على يد المبشرين الغربيين الذين سبقوا الاستعمار الغربي في القرن التاسع عشر ليمهدوا له، ثم عملوا تحت الحماية الاستعمارية مما أسفر عن تأثير مزدوج؛ حيث أسهم من جهة في نشر المسيحية، ولكن أدى من جهة أخرى إلى إعاقة انتشارها، نظرًا لارتباطها بالاستعمار، الأمر الذي شجع الاتجاه إلى الإسلا م .وإذا كان القرن التاسع عشر يطلق عليه ـ من جانب المهتمين بدراسة المسيحية في أفريقيا ـ **قرن التبشير في القارة الأفريقية**، فإن القرن العشرين أطلق عليه ـ من منظور مسيحي ـ **قرن الاستقلال المسيحي في القارة**؛ حيث انتشرت الكنائس الأفريقية المستقلة(٤) لتصل إلى أكثر من ستة آلاف وخمسمائة كنيسة بنهاية القرن.

وقد ارتبط التبشير المسيحي من جانب المبشرين الغربيين بالنظرة الاستعلائية، حيث لم ير المبشرو ن في الأفريقيين سوى «قبائل متوحشة غارقة في الخرافات الكافرة». ومن ثم أرادوا إدخال العقيدة المسيحية «**للقارة المظلمة**». ومنذ البداية لم تكن نظرتهم للأفريقيين على أنهم إخوان في الإنسانية وأن الهدف هو إدخالهم في الدين العالمي؛ وإنما كانت نظرة دونية حيث كان تفكيرهم ـ كما اقترح بعض رواد التبشير ـ هو اتخاذ أبنائهم كخدم وإدخالهم للدين المسيحي .فالعلاقة تحددت منذ البداية بعلاقة السيد /التابع أو الخادم، وعلى هذا الأساس أنشأت شركة الهند الشرقية الهولندية في جنوب أفريقيا.

ولكن ما إن جاء الفتح الإسلامي في القرن السابع حتى أدى إلى تقلص المسيحية إلى لا شيء .حتى إن المسيحية جنوب الصحراء كانت واقعيًا غير معروفة . فالانتشار الكبير والسريع للمسيحية في أفريقيا جاء في القرنين الماضيين؛ حيث جذبت ثروات القارة القوى الغربية للتجارة .ومعهم جاء من بشروا بالدين المسيحي.

فشركة غرب أفريقيا الهولندية كانت دائمًا ما تعين مبشرًا ضمن موظفيها في قلاعها المنتشرة، وتبدو أهميته أنه كان يلي في منصبه الحاكم العام .وكان اهتما م المبشرين أساسًا بالجانب الروحي للأوروبيين وليس للأفريقيين.

وإن كا نت القلة من الأفراد قد استطاعوا أن يستفيدوا من المبشرين والدخول في المسيحية فإن مهمّة هؤلاء المبشرين الأساسية لم تكن الرسالة المسيحية بقدرما تمثلت في تبريرالواقع الأفريقي المتدني في ظل علاقة الغرب مع الرقّ، إلى درجة أن أكد أحدهم في بحثه الجامعي أن الرق لا يتنافى مع الحرية الدينية[٥]. والرق كان مؤسسة معترفًا بها حتى إلغاؤه وكان جزءًا عاديًا من الحياة والتجارة ولكن لم يتخذ المبشرون ورجال الدين المسيحي ولقرون أية خطوة لإنهائها و تقليص آلام الخاضعين له.

وهناك عدة عوامل أسهمت في انتشارالحركة المسيحية في أفريقيا في أواخر القرن التاسع عشرأهمها :التقدم الصحي واكتشاف الدواء الواقي من الملاريا بالذات في عام ١٨٩٧ والتي كانت أكبرمعوق للعمل التبشيري حتى عام ١٨٩٠ ، فهبطت نسبة وفيا ت الأوروبيين في أفريقيا إلى الثلث ..وكذلك تقدم شبكة المواصلا ت الأمر الذي يسرانتقال المبشرين ومكن من تقدم العمل التبشيري و وفّر الجهد والوقت ، وضاعف جهود المبشرين .ولعل أكبرمشجع للعمل التبشيري هو زيادة الطلب على المدارس والمدرسين منذ عام ١٩١٠

ولكن من أهم الأسباب الحقيقية لارتباط انتشارالمسيحية بذلك الوقت بالذات هو بداية الاهتمام الأوروبي بالقارة نفسها ـ وليس فقط بعنصرها البشري كما كان الوضع سابقًا ـ بل وبمصادرها الطبيعية والتكالب الاستعماري عليها؛ الأمر الذي ارتبط به ومهد له في كثيرمن الأحيان النشاط التبشيري. وقد لخص لفنجستون ذلك بقوله :«أنا عائد لأفتح بابًا للتجارة وللمسيحية، فأرجو أن تكملوا العمل الذي بدأ، والذي أتركه لكم» [٦].

وقد واجهت البعثات التبشيرية العديد من الصعوبات منذ بدء الأمر ولكن الكنائس المسيحية استطاعت أن تزدهر وذلك بالتركيز على الاهتمام بالتعليم الذي هو الكلمة السحرية في أفريقيا، حيث كان المدخل له هو الأخذ بالدين المسيحي الذي كان له مصدر جاذبية للدخول في طبقة المثقفين بالثقافة الأوروبية، ومن ثم التحرك الاجتماعي والاستيعاب في الطبقة الحاكمة. ويلاحظ أن التعليم في الدول الأفريقية كان حتى الاستقلال حِكرًا على البعثات التبشيرية المسيحية، وذلك قبل إدخال التعليم العا م، لذا يذهب الكثيرون إلى القول بأن «**الارتباط بالمسيحية بين الأفريقيين كان تعليميًا أكثر منه لاهوتيًا**».

بالإضافة إلى التعليم فقد ركزت الكنائس على العمل الطبي، وذلك بإنشاء المستوصفات والمستشفيا ت الصغيرة والعيادات التي سبقت إنشاء المستشفيات الكبيرة وقدمت خدماتها بصورة منتشرة ليس فقط في المدن، ولكن أيضًا في الأدغال والمناطق المحلية المختلفة، وقلّما وجد مبشر لم يعمل بالطب أو التدريس أو غيرها، مما اعتبر مدخلاً لنشر الدين عن طريق تقديم الخدمات.

وفضلاً عن هذا، فقد ركزت الكنائس على كتابة اللغات الأفريقية، وترجمة الكتب ـ خاصة الإنجيل، كله أو أجزاء منه ـ باللهجات المحلية .فمنذ عام ١٨٠٥ ترجم الكتاب المقدس أو أجزاء عنه إلى ٣٩٥ لغة أفريقية.

المسيحية وانتشار الإسلام:

هناك عدة عوامل أسهمت في انتشار الدين الإسلامي في أفريقيا ترجع إلى التبشير، على الرغم مما ينفق عليه وبسخاء، كما ترجع إلى مضمون المسيحية نفسها بمواجهتها مع المجتمع الأفريقي، وإلى الاستعمار الغربي، الأمر الذي لم يأ تِ عن قصد ولكن نتاجه المباشر أو غير المباشر كان الإسهام في انتشار الدين

الإسلامي في أفريقيا .فعوامل الطرد في المسيحية عملت في نفس الوقت كعوامل جذب للإسلام .ويتفق المهتمون بدراسة عقبات انتشارها في أفريقيا-في أنها تقع أساسًا في إطار المسيحية نفسها وليس خارجها، ومن ثم تفتح الباب لانتشار الإسلام.

١ -صعوبة تفهم التعاليم المسيحية:

تعد الوحدانية الصريحة أو الضمنية قريبة إلى أذهان الأفريقي العادي ودين الفطرة الذي يدين به؛ وبالتالي كان تقبل الدين الإسلامي بأساس الوحدانية المطلقة فيه .أما العقيدة المسيحية فهي عقيدة مركبة، صعبة الفهم، وهي كما يقال عنها أنها «فوق العقل».

ففكرة التثليث أو الوحدانية القائمة على التثليث في المسيحية تقوم على الإيمان بإله واحد مؤلف من ثلاثة عناصر أو أجزاء أو شخوص هي :الأب والابن والروح القدس .والعناصر الثلاثة متساوية، وكل له طبيعته واختصاصه ويتوجه الفرد لكل منها بالدعاء في مجالسه، «فالله الأب مصدر العدل، والله الإبن مصدر الرحمة، والله الروح القدس مصدر النعمة»وكل منها لا يملك القيام بمهام الآخرَين وإن كانوا متكاملين.

وكما يعبر مندلسون؛ فإن «مفاهيم المسيحية لم يكن من السهل على الشعب الأفريقي العادي أن يهضمها، وحينما بدأت تظهر النخبة المتعلمة من الأفريقيين كانت المسيحية، لمصاحبتها المستمرة للاستعمار، ترمز له بطريقة أو بأخرى ولهذا بدأت بين المسيحيين الأفريقيين حركة «أفرقة» الدين المسيحي بما يتبعها من تعدد الكنائس الانفصالية التي عملت على أن تأخذ من المسيحية بقدر محدود من ناحية، وعلى أن تحتفظ بالعادات والتقاليد الأفريقية من ناحية أخرى.

كما أن هناك العديد من المفاهيم والأسرار في الدين المسيحي تستعصي على

فهم الأفريقي العادي الذي تعود على دين الفطرة وبساطته، ونظرة على الأسرار السبع[٧] (الشعائر التي تقوم عليها المسيحية؛ حيث تعتبرأعمدة الكنيسة السبع في الكنائس الكاثوليكية والأرثوذوكسية، والتي من المفروض أصلاً أن يدين لها بالولاء والخضوع المسيحيو ن) تعطي صورة عن مدى التركيب ومدى أهمية الكهنوت في ممارسة الشعائر:حيث الكاهن هو خادم الأسرار(وكيل الله وأمين أسراره والقائم مقام المسيح) الذي يستدعي الروح القدس بالعبارات المعينة لتقديس السروإتمامه.

٢ -تركيزالمسيحية على الشؤون الروحية:

ـالفصل بين الدين والدولة

جاءت المسيحية كدين روحي خالص انطلاقًا من قول المسيح :«**مملكتي** ليست من هذا العالم»، على أساس أن نهاية العالم وشيكة وبالتالي تتضاءل كافة الأمورالدنيوية، ومن ثم كانت الدعوة لتسامي الأفراد والتركيزعلى الأمورالروحية سعيًا للحياة الأبدية الأخروية .فالمسيحية قامت على الفصل بين الأمورالدينية والدنيوية مركزة على الأولى، مع إعطاء «**ما لقيصر لقيصروما لله لله**»، ليس محبة في قيصر ولكن محبة في الله وعدم الانشغال عن الأمورالروحية بالماديات الدنيوية، فالمسيحية دين وليست دنيا، على خلاف الدين الإسلامي الذي يعتبرديًنا ودنيًا معًا، وكذلك على خلاف الدين التقليدي الأفريقي الذي لم يعرف الفصل بين الأمورالدينية والدنيوية حيث تداخلت في حياة الفرد بحيث يصعب الفصل بينهما فصلاً جامدًا.

وقد فسرالبعض هذا البعد كما قدم من جانب المبشرين الغربيين على أنه دعوة للسلبية تجاه معاناة الأفريقيين من الاستغلال والاستعمارالأوروبي لأراضيهم عن طريق وعدهم" بالمملكة "في العالم الآخرفي مقابل ترك "مملكتهم الدنيوية" في أفريقيا للأوروبيين.

وقد اعتبرالفصل بين الأمورالدينية ـ الروحية والدنيوية ـ الزمنية أحد الفرسان الأربعة التي تعمل ضد انتشار المسيحية في أفريقيا حسب تعبيرأموري روس: «فكثيرمن المسيحيين الأفريقيين تركوا الكنيسة لأن الإنجيل، كما يقولون، يمنعهم من الاشتراك في شؤون العالم ويأخذهم إلى عالم غريب حيث الاهتمام بالروح فقط».

هذا وقد قامت الحركات القومية في أفريقيا ـ بأساليب مختلفة ـ بتطويراتجاه معاد للمسيحية حيث نَظَرللإرساليات التبشيرية ـ في إطارتلك الحركات التي نمت في ظل الحكم الاستعماري ـ على أنها نموذج استعماري :لأن الإرساليات عامة لم تقف وقفة إيجابية في وجه الاستعمار ولم تقل لا للوضع الاستعماري.

ـ الدعوة إلى الزهد والتسامي عن الأمورالمادية الدنيوية :الفقرالإرادي

ارتبط بتركيزالمسيحية على الأمورالروحية الدعوة إلى الزهد وترك الملذات والأمورالدنيوية والسعي للآخرة .ومن ثم كانت النظرة للغنى على إنه يفتح الطريق للفساد والغواية ويمثل عقبة في سبيل وصول الفرد وما ينشده من ملكوت السماوات وضمان الحياة الأبدية .فالمسيحية تدعو بوضوح للفقرالإرادي.

٣ -أحكام الأحوال الشخصية في المسيحية:

وقفت المسيحية موقفًا متشددًا في مسائل الزواج والطلاق بما كان له أثره المباشرعلى عدم اقبال الأفريقيين على المسيحية، كما كان له اثره المباشر في أخذ الكنائس المستقلة في أفريقيا موقفًا أقل تشددًا من الكنائس المسيحية العالمية في محاولة للتوليف بين القيم المسيحية والقيم الأفريقية المتوارثة التي تقوم فيما يتعلق بالزواج على تعدد الزوجات كأمرطبيعي يتمشى مع طبيعة الأشياء . وقد كان لموقف الإسلام المرن في مسائل الأحوال الشخصية أثره المباشرأيضًا في الدخول في الإسلام .وإن كان من الخطأ القول بأن مسائل الأحوال الشخصية

هذه وحدها وراء الدخول في الإسلام أو عدم الحماس للمسيحية حيث تمثل أحد العوامل الاجتماعية المهمة.

- **شريعة الزوجة الواحدة: إدانة تعدد الزوجات**

هناك إجماع بين الكنائس العالمية، قديمة كانت أم جديدة، على مبدأ الزوجة الواحدة، باعتباره ركيزة أحكام الأحوال الشخصية عند المسيحيين، وهذا الأمر مسلم به لدى رجال الدين، ولدى رجال القضاء أيضًا .وكما عملت بها الكتب الكنسية، كذلك وردت في التشريعات التي أصدرتها الحكومات المسيحية في العالم اجمع.

ـ موقف المسيحية من الطلاق

وقفت المسيحية موقفًا حازمًا فيما يتعلق بالطلاق حيث حرمته إلا لعلة الزنا التي تهدم أساس جوهرالزواج وهو وحدة الجسد .وفي قول السيد المسيح.. «وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعله الزنا يجعلها تزني .ومن تزوج بمطلقة فإنه يزني».

وعليه فمفهوم الطلاق مرفوض تمامًا في المسيحية استنادًا إلى قول المسيح نفسه .وهذا الأمر فيما يتعلق بالطلاق أيدته وفسرته القوانين الكنسية وأقوال الآباء: آباء الكنيسة.

ـ زواج الأرامل

وكما وقفت المسيحية في وجه تعدد الزوجات وفي وجه الطلاق، تأكيدًا على مفهوم الزوجة الواحدة ووحدة الجسد ، فإنها وإن كانت «تجيزالزواج الثاني بعد الترمل إلا أنها لا تستحسنه بل تنصح بعدم قيامه وتضعه في درجة أقل من الزواج الأول». ولذا فقد أخذ الكثيرون بمبدأ الزواج الواحد على الإطلاق، سواء في حياة الزوجة أو بعد وفاتها.

ـ الدعوة إلى العفة والاعتدال بين الأزواج

والمسيحية لا تنادي فقط بالعفة التي تبدو في تشجيع الرهبنة وعدم الزواج كلية ..ولكن حتى باختيار البديل التالي وهو الزواج فهناك أيضًا دعوة للعفة والاعتدال والابتعاد عن الانغماس في الشهوة، وتحديد فترات للامتناع عن فراش الزوجية بقصد التفرغ للعبادة خاصة طوال صوم الأربعين يو مًا المقدسة وأيام التقدم للأسرار المقدسة.

ـ الحث على الرهبنة

قامت الديانة المسيحية بالدعوة للزهد والرهبنة وترك ملاذ الحيا ة، وذلك وفقًا لتعاليم المسيح: «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم». وفي هذا المجال يقول البابا شنودة الثالث: «لم نَرَ ديانة في الوجود تحض على البتولية، وتدعو إلى حياة الزهد والعفة مثلما فعلت المسيحية، حتى كان من نتائج ذلك قيام الحركة الرهبانية الواسعة النطاق التي كانت تشمل في القرن الرابع الميلادي عشرات الآلاف من الرهبان في براري مصروحدها».

من الطبيعي في ظل هذه الرؤية المحدودة للأحوال الشخصية أن يشعر الأفريقي بالاغتراب في ظل أحكام الأحوال الشخصية في المسيحية حيث أن تعدد الزوجات يعتبر نمطًا عامًا في المجتمع الأفريقية تقليديًا، وحيث ينظر إليه نظرة إنسانية بلا حساسيات، حيث تعيش الزوجات عيشة مشتركة ويتعود الأبناء على تلك الحياة بلا غضاضة، وتمثل الزوجة الأولى الآمر والمنظم بالنسبة للأخريات والمبلّغ لأوامر الزوج .وقد ذهب التعدد عند زعماء القبائل المقتدرين إلى حد اتخاذ مئات الزوجات.

جدير بالذكر في هذا المجال أن العديد من المجتمعات الأفريقية تشهد اختلال النسبة بين الذكور والإناث اختلالاً كبيرًا قد يصل إلى أربعة أضعاف لصالح الإناث

مما يجعل الرؤية التقليدية طبيعية ومنطقية.

ويمثل هذا الشعور بالاغتراب أحد أسباب انتشار ظاهرة الكنائس المستقلة بأفريقيا، والتي تشترك في السماح بتعدد الزوجات بالنسبة للمسيحيين من أتباعها في محاولة للجمع بين المسيحية والقيم الاجتماعية المتوارثة، أو بعبارة أخرى في محاولة" لأفرقة المسيحية "فضلاً عن أن الكنائس العالمية -بما فيها الكاثوليكية- بدأت تغض النظر عن تعدد الزوجا ت بالنسبة لأتباعها من الأفريقيين الراغبين في المواءمة بين اتّباع كنيسة عالمية والمحافظة على القيم الاجتماعية التقليدية.

٤ -التعصب الديني والانقسامات الطائفية:

من أهم ما يلاحظ على المسيحية في أفريقيا، هو محاربة الكنائس المسيحية المختلفة لبعضها البعض، أي الانقسام بين الطوائف المسيحية؛ خاصة بين الكاثوليك الرومان وكلاّ من الأرثوذكس والبروتستانت من جهة، وفيما بين البروتستانت أنفسهم من جهة أخرى، فضلاً عن الانقسام الظاهر بين الكنائس العالمية من جهة وبين الكنائس الأفريقية المستقلة التي تنظر إليها الأولى -على أحسن الوجوه- على إنها كنائس متمردة، وتمثل «وثنية مسيحية» على أسوأ الوجوه، فكثيرًا ما قامت المشاغبات بين الانتماءات المسيحية للكنائس المختلفة إلى الحد الذي ذهب ببعضها إلى إحراق كنائس الأخريات، خاصة في نيجيريا، الأمر الذي كان يتم أمام سمع وبصر الأفريقيين، مما أفقدهم الثقة بالجميع.

ومشكلة الانقسام الواضح بين الكنائس الأصلية في أفريقيا -فضلاً عن انتشار الكنائس المستقلة والمنشقة عليها- يجعل المسيحية لا تستطيع أن تقف كجبهة واحدة لا في مواجهة الدين التقليدي ولا بالنسبة للإسلام الذي أيًا كانت انقساماته الداخلية (لسنة والشيعة والطرق الصوفية)، إلا أنها لا تمس جوهر وحدته.

هذا التعصب الديني الذي ميز سلوك المبشرين عامة -والذي ينقلونه للأفريقيين

ـ يتنافى مع القيم التقليدية الأفريقية؛ حيث إن الأفريقيين أصلاً لا يعرفون التعصب الديني بل كثيرًا ما يقوم الشخص الذي لا يزال يدين بالدين التقليدي بإدماج بعض نواحي التعاليم الإسلامية أو المسيحية في تعاليم أجداده، كما أن العائلة الواحدة قد يوجد بها منتمون لديانات وعبادات مختلفة بدون وجود مشاكل تذكر.

٥ -الربط بين المسيحية والتفرقة العنصرية:

أخذت المسيحية كديانة عالمية بالمساوا ة، وإن كان لا يوجد تأكيد على المساواة المطلقة بين البشرباعتبارهم بشرًا في المقام الأول .بل إن الإنجيل لا يتضمن أي نص صريح على المساواة.

بل إن المسيحية ـ كما دعمها بولس الرسول ـ قد أخذت بمفهوم أبناء الحرة وأبناء الجارية؛ حيث أبناء الحرة هم نسل السيدة سارة من اليهود ومن بعدهم المسيحيين، أما الآخرون فهم غيرهم من الشعوب من نسل السيدة هاجرمن سيدنا إبراهيم، وهو المفهوم الوارد في التوراة من قبل ؛ ففي قول بولس الرسول: « لكن ماذا يقول الكتا ب: أطرد الجارية وابنها، لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة، إذًا أيها الأخوة لسنا أولاد الجارية بل أولاد الحرة».

وفي هذا المجال يوضح سير توماس أرنولد القول: «وقد أجاد شخص كان نفسه زنجيًا توضيح الطريقة التي تقدَّم بها كل من المسيحية والإسلام إلى الأفريقيين وذلك في العبارات ا لآتية :... نجد الدعاة المسلمين ينفذون إلى قلب أفريقيا، ويصلون في سهولة إلى الوثنيين، ويحولونهم إلى الإسلا م. وبذلك أصبح الزنوج اليوم ينظرون إلى الإسلام على أنه دين السود، والمسيحية على أنها دين البيض، ويرون أن المسيحية تدعو الزنجي إلى الخلاص، ولكنها تضعه في مكان منحط إلى حد أنه يقول في نفسه وقد استولى عليه القنوط :ليس لي نصيب ولا

حظ في هذا الدين .أما الإسلام فإنه يدعو الناس إلى الخلاص ويقول له :إن بلوغك أسمى الدرجات الممكنة إنما يتوقف عليك .ومن ثم أقبل الزنجي بدافع من الحماسة على هذا الدين بروحه وجسده».

هذا، وفي الوقت الذي تأخذ فيه المسيحية بثنائية نظام القيم المعمول به في الغرب، فإن الإسلام يأخذ في المقابل بأحادية نظام القيم.

وقد تقبلت المسيحية العبودية كحقيقة مسلم بها، ونظرت إليها شأنها شأن عدم المساواة على أنها شرورردنيوية يجب تحملها تكفيرًا عن الخطيئة الأولى، والاسترقاق على أي حال نظر إليه على أنه استرقاق للجسد أما الروح فهي طليقة .فلم تتخذ المسيحية أية خطوة للقضاء على الرق، أو رفع شأن الأرقاء حيث تقبلت مفهوم العبودية ، ووردت في مواضع متفرقة في الإنجيل، والرق على أية حال كان مؤسسة معترف بها في العالم حتى ألغى رسميًا في أوائل القرن الماضي.

وهكذا وجد الأفريقيون في ذلك عنصرطرد أساسي من المسيحية، وفي نفس الوقت يتحول هذا إلى عنصرجذب للإسلام؛ الذي هدم أسس التفرقة العنصرية بأحادية نظام قيمه، وبأسس المساواة العالمية المطلقة فيه والممارسة التي رفعت شأن السود، الأمرالذي جعل الكثيرين يطلقون عليه : «دين الرجل الأسود».

٦ -التغريب وتطلب ترك العادات والقيم التقليدية:

حرصت الإرساليات التبشيرية على نقل الحضارة الأوروبية الغربية لأفريقيا من جهة، كما حرصت على ضرورة ترك الأفريقيين المسيحيين للكثيرمن العادات والقيم التقليدية الموروثة ، من جهة أخرى .مما جعل صفة الأجنبية والتغريب ترتبط في الأذهان بالمسيحية في أفريقيا، الأمرالذي أدى لاستخدام تعبيرالأورو-مسيحية. Christianity ـEuro في هذا المجال والنظرإلى الأفريقي المسيحي على أنه أورو-مسيحي Euro.ـ Christian.

فالعمل التبشيري لم يقتصرعلى نشرالديانة المسيحية والدعوة للإنجيل، ولكنه تضمن أيضًا التعليم والحرف والفنون والرعاية الطبية، كما أن زراعة الثقافة الأوروبية قد أصبحت بعدًا أساسيًا من الأهداف التبشيرية.

ومن الجدير بالملاحظة أن أسلوب التنصير القائم على" تحويل روح واحدة" أي إدخال كل فرد على حدة للمسيحية ـحيث الأساس تغييرالقلب ـاتبع في أفريقيا كما هو متبع في المسيحية عامة، ولكنه وإن تمشى مع الفردية الغربية إلا إنه أغفل الانتماء الجماعي في أفريقيا، وأعطى الانطباع بأن على الأفراد أن يتركوا قبائلهم لينتموا" للقبيلة المسيحية ."وغني عن الذكرأن أسلوب التنصيرالفردي هذا يجعل من الصعب دخول الأفريقيين للمسيحية كجماعات وإن لم يحل دون دخولهم كأفراد، على خلاف المشاهد بالنسبة لدخول عائلات بل وقبائل بأجمعها للإسلام مرددين الشهادة جميعًا.

فالحضارة الأوروبية اعتُبرت إحلاليةً محلّ الحضارة الأفريقية التي حرصت الإرساليات على تدميرها كمتطلب سابق للدخول في المسيحية .وكما يعبر البعض فإن ما قامت به الإرساليات هو في حقيقته عملية إفناء وليس عملية استيعاب. وإن على الأفريقي وخاصة الأفريقي المسيحي التعامل مع هذه المشكلة.

٧-النشاط التبشيري المسيحي:

هناك عدة أبعاد للنشاط التبشيري المسيحي ـعلى الرغم مما ينفق عليه بسخاءـ أسهمت في الإساءة لصورته، ومن ثم انعكست على مدى انتشارالمسيحية.

ـمشكلة الاتصال بين المبشرين والأفريقيين

إن أهم مشكلة تواجه الكنيسة في أفريقيا تقع في مجال التواصل، ومن هنا كانت صعوبة توصيل الرسالة المسيحية .فالمسيحية جاءت على يد المبشرين الأوروبيين، وما زالت لهم اليد الطولى في هذا المجال على الرغم من انتشار

الكنائس المستقلة، فهناك في الواقع حائل حضاري ونفسي يفصل بين المبشرين وبين المخاطبين من الأفريقيين.

ـ عدم الثقة في جدية التبشير والقائمين عليه

من الملاحظ أن المبشرين في سعيهم لجمع الأموال ـ من دولهم الأصلية خاصة والدول الغربية عامة ـ اللازمة للعمل التبشيري في أفريقيا أساءوا ـ دون قصد في أغلب الظن ـ إلى صورة المجتمعات الأفريقية، وذلك بإبراز بعض أوجه الحياة والنواحي غير المشرقة في تلك المجتمعات (كالفقر والمرض والتخلف الاجتماعي وغيرها) والمبالغة في إظهارها، جذبًا للعطف والأموال.

ـ عدم اندماج المبشرين بالأفريقيين :الانطواء والانعزالية والاستعلاء

فالمبشرون المسيحيون يحملون معهم إلى أفريقيا بالطبيعة استعلاء وتفوق المجتمع الغربي الذي جاءوا منه، وهم لا يندمجون مع الأفريقيين ولا يتزوجون بزوجات أفريقية، بل يحافظون دائمًا على مسافة بينهم وبين الأفريقيين (ونفس الأمر ينطبق على سلوك المبشرين البيض تجاه إخوانهم من المبشرين الزنوج الأفرو-أمريكيين).

دور الاستعمار في انتشار المسيحية والإسلام:

ـ العلاقة بين التبشير والاستعمار

أهم ما واجه المسيحية في أفريقيا من صعوبات عرقلت نشاطها هو اصطباغها بالصبغة الاستعمارية، حيث نظر إليها على أنها أداة استعمارية وملحقه بالإدارة الاستعمارية أيًا كانت تلك الإدارة .ومن ثم؛ فإن رفض الاستعمار تضمّن بالطبيعة رفض كل ما ارتبط به من قيم؛ بما فيها المسيحية. والمبشر المسيحي كان رائدًا لدخول الرجل الأبيض للقارة؛ فالمبشرون كانوا طليعيين للاستعمار الغربي في أفريقيا فقد سبقوا الجيوش الاستعمارية ووطدوا لها، كما جاءوا في ركابها؛ حيث لم تخلُ الجيوش الاستعمارية من المبشرين ليعملوا على فتح القلوب، وتضمنت

الاتفاقات التي أُبرمت بين النظم الاستعمارية والزعامات الأفريقية حيثما وجدت بندًا ينص على إطلاق حرية التبشيرفي طول البلاد وعرضها .كما عاش المبشرون على الحظوة والتفضيل الإمبريالي والسياسي، وارتبطت مصالحهم بمصالح دولهم المستعمرة خاصة، وارتأوا استمرار الوضع القا ئم الذي يمكنهم من القيام بمهامهم، وبنفس المثل استخدمتهم النظم الاستعمارية على اختلافها لتحقيق أهدافها : فالعلاقة بينهم متبادلة، وكذلك المصلحة، فالعلاقة بينهم تكافلية بالدرجة الأولى . ومن هنا فقد استخدم البعض تعبير «إمبريالية الجماعات التبشيرية» أو **الإمبريالية التبشيرية**، رمزًا لتسلط الإرساليات في أفريقيا وسياستها في السيطرة على مقدرات الشعوب وتسييرها وفقًا للسياسات الاستعمارية، والقضاء على أي تراث ثقافي قائم غيرالتراث الغربي المسيحي، وكان المدخل الواسع للتبشير ونشاطه هو التعليم الذي كان نحو٩٥ ٪ منه في يد ا لمبشرين في ظل الإدارة الاستعمارية، وكان التعميد هو المتطلب السابق للتعليم في معظم الحالات، ولكن في بعض الحالات قام الأفريقيون فيما بعد بإحراق المدارس والكنائس على أساس أنها مرتبطة بالسلطة ومن ثم بالإخضاع.

وعليه فإن إصباغ المسيحية في أفريقيا بالصبغة الاستعمارية جعل الدعوة لنبذ الاستعماروالتحرردعوة ضمنية لنبذ المسيحية .فالمسيحية جاءت وظهرت على يد الأوروبيين، بل وظل ينظر إليها على أنها دين الرجل الأوروبي أي دين الرجل الأبيض، وظلت تنوء تحت عبء تلك الصفة .وبالتالي؛ فهي ينظر إليها في كثيرمن الأحيان على أنها دين الأوروبي المستعمر، فالدعوة للأفريقية والأصالة أخذت إلى حد كبير شكل الدعوة لنبذ كل ما هو غربي، مرتبط بالاستعمار بما فيه المسيحية .وفي أحسن الأحوال أخذت شكل أفرقة المسيحية بقيام الكنائس المستقلة التي يطلق عليها البعض«**الكنائس المتمردة**»، والتي على أي حال تعمل ضد فكرة العالمية التي تنشدها الديانة المسيحية. وكما يعبرالبعض من الأفريقيين

«إن الشر الأساسي للتبشير المسيحي في أفريقيا هو تراثها النفساني». المسيحية هي دين أسيادنا الجائرين الأجانب .وقد ينظر إلى زيادة انتشارها بين شعب يحاول أن ينفض عنه آثار أسياده الأجانب نظرة ريبة .وليست فكرة إقناع الرجل الأسود بقبول رب الرجل الأبيض سوى ترادف لإقناعه بقبول دوره الأدنى».

ومما يلاحظ في هذا المجال أنه في الوقت الذي ربطت فيه الشعوب الأفريقية بين الاستعمار والمسيحية ـ حيث قدمت المسيحية على أية حال من جانب مواطنين ينتمون على وجه الخصوص لدول مستعمرة ـ فإن الإسلام على العكس ارتبط في أذهان الكثيرين بالوقوف في وجه الاستعمار لا كمجرد دعاية أو تصور ولكن كحقيقة موضوعية :فمن ناحية واجهت الجيوش الاستعمارية ومحاولة فرض السيطرة من جانب الدول الأوروبية مقاومة شديدة من جانب الزعماء الدينيين المسلمين الذين أطلقوا على الأوروبيين من الغزاة اسم" الكفار."وقد شهدت القارة الأفريقية في الواقع هذه الظاهرة التي انتشرت من مكان لآخر: **السنوسية في ليبيا، المهدية في السودان، الملا في الصومال، حركة الزعيم سوماري توري في غينيا، القادرية في الجزائر، العرابية في مصر، حركة الحاج عمر التل وابنه أحمد في امبراطورية ماسينا في مالي، وحركة ماء العينين القلقمي في موريتانيا وعثمان دان فوديو في نيجيريا**، كلها أمثلة حية على" الحروب المقدسة "تحت راية الإسلام لمقاومة الغزو الأوروبي والتسلط الاستعماري.

ويلاحظ أن الإسلام كان بطيء الانتشار في القارة الأفريقية عامة حتى القرن التاسع عشر، حتى فرض الاستعمار سيطرته على القارة ومن وقتها انتشر بسرعة واضحة حتى أصبح متغلغلاً في كل دول القارة، وإن كان الاختلاف بينها في نسبة المسلمين العددية وليس في وجودها وعدمه .فما من دولة في القارة اليوم لا تعرف وجود المسلمين بها، حتى أنجولا معقل الكاثوليكية وركيزة البرتغال لقرون عدد من المسلمين بها يصل إلى نحو الألفين .وهم مع قلتهم يمثلون ظاهرة تنمّ عن

كيفية الصمود والاستمرار رغم الجهود المكثفة للتبشير بالمنطقة ولقرون.

ولكن ما السبب في ارتباط سرعة انتشار الإسلام وتعميقه في أفريقيا بوجود المستعمر؟

هناك عدة جهود لتبرير ذلك :فمن ناحية، يمكن القول أن الحروب الدينية باسم الجهاد جذبت إليها الكثيرين لمواجهة الاستعمار، ومن ناحية أخرى فقد يكون هناك أيضًا اجتياح تلك الجيوش الإسلامية لكثير من القرى في أثناء مواجهة المستعمر قد جعل الكثيرين يتبعونه لا بحماس المجموعة الأولى ولكن خوفًا أو اتباعًا للكثرة .من ناحية ثالثة فإن زعامة القادة الأفريقيين المسلمين للجهاد ضد المستعمر الأوروبي خلق تعاطفًا مع المسلمين وجعل الإسلام رمز الكفاح ضد المستعمر وجَذَب لأتباع الدين ا لإسلامي البعض ممن نفروا لنفس السبب من المسيحية التي جاءت تحت الراية الاستعمارية الأوروبية .يضاف إلى هذا **أن النظم الاستعمارية في كثير من الحالات ـ كما حدث في غرب أفريقيا وشمالها وشرقها (منطقة القرن الأفريقي)ـ لم تستطع أن تقيم حكمها إلا بعد القضاء على المملكات الإسلامية القائمة والتي مثلت عقبة كؤود في سبيل فرض سيطرتها الاستعمارية** .إلا أنها، وإن كانت لم تستطع بذلك أن تتغلب على حقيقة أن المسلمين كانوا على درجة من التقدم والتنظيم والثقافة مما جعلها تستعين بهم في الإدارة .كما استخدمت الكثير من المشايخ ذوي النفوذ الاجتماعي ـ السياسي لضمان السيطرة على الشعوب عن طريقهم، مما قوّى من نفوذهم الاجتماعي ـ السياسي وجذب إليهم المزيد من الأتباع ويبدو هذا واضحًا من المشايخ المعروفين بالمرابو (المرابطين) في غرب أفريقيا الناطقة بالفرنسية وخاصة في السنغال، والمعلم أو مولو في شرق القا رة .

ويلاحظ أن اعتماد بريطانيا على السواحيليين في شرق أفريقيا في الإدارة كان مطلقًا تقريبًا،على الرغم من كراهيتها لذلك، ولكن كونها قد بنت

سياستها الاستعمارية على البرجماتية، فإنه كان عليها أن تستعين بأكثر العناصر تقدمًا ألا وهم المسلمون السواحيليون، مما أسهم أكثر في زيادة نفوذهم اجتماعيًا وزاد من نشاط الدعوة الإسلامية .يضاف إلى هذا فإن قدوم الأقليات الإسلامية من الهنود ـ وخاصة الباكستانيين منهم ـ الذين جلبتهم وجذبتهم الإدارة البريطانية للعمل في شرق أفريقيا وجنوبها والجزر الأفريقية، أسهم في نشر الإسلام عن طريق هؤلاء الذين، وإن كانوا قد جاءوا معهم ببعض الانشقاقات الدينية، إلا أنهم على أي حال مسلمون .ويرجع الفضل لهؤلاء المسلمين التجار من الأقليات الآسيوية في حمل شعلة نشر الإسلام في شرق وجنوبي أفريقيا بحيث نجد أن نحو ٦ ٪ من الملونين ـ وهم ذوو الأصل المختلط ـ في جمهورية جنوب أفريقيا من المسلمين.

ـ التحريك الاجتماعي في ظل الاستعمار وأثره على انتشار الإسلام

على الرغم من الاختلافات الواضحة بين النظم الاستعمارية المختلفة من حيث السياسات الاستعمارية المتبعة وأنماطها، إلا أنها جميعًا وبدون أن تدري أوجدت الظروف الملائمة للتحريك الاجتماعي،المتمثل في عوامل التغيير التي تطرأ في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتي تخرج بوعي الأفراد بعيدًا عن البيئة المحلية التي ولدوا فيها، والذي يعتبر متطلبًا سابقًا لظهور الحركات القومية والاستقلال .كأنها وبدون أن تدري بذرت بذور فنائها بتمهيد المجال لظهور وريثتها الحركات القومية التي ظهرت في ظل الوجود الاستعماري وكنتيجة له .ويهمنا في هذا المجال أثر عوامل التغيير في انتشار الدين الإسلامي .ونذكر من أهمها من الناحية السياسية :أن الحكم الاستعماري أضعف السلطة التقليدية للزعماء التقليديين مما نتج عنه إضعاف سلطة هؤلاء الدينية وتدهور الديانات القبلية، حيث تعمل كل جماعة قبلية كجماعة دينية في نفس الوقت، وقد مارس الزعماء التقليديون سلطة دينية باعتبارهم زعماء دينيين أيضًا.

كما أن استتباب الأمن وانتشار طرق المواصلات البرية والحديدية من جهة أخرى ساعد على سهولة انتقال التجار ـ حملة الدين الإسلامي ـ من جهة، كما

شجع من جهة أخرى انتقال الشباب بعيدًا عن المناطق الريفية التي ولدوا وتربّوا فيها مما أسهم أيضًا في تحلل الروابط التقليدية وإبعاد الشباب عن السلطة التقليدية سياسيًا ودينًيا .فضًلا عن ذلك فإن إنشاء المدن أو على الأصح انتشارها ـ حيث إنها كظاهرة كانت موجودة قبل الوجود الاستعماري ولكن انتشرت حول مقر الحكم الاستعماري وازدادت اتساعًا ـ مع وجود فرص للاستقرار والتعيش خارج المناطق التي ولدوا فيها أسهمت أيضًا في جذب الأفريقيين خاصة الشباب منهم، مما أسهم في إضعاف السلطة التقليدية والبعد عن ممارسة الدين التقليدي والجزاءات الدينية التقليدية .ومن ناحية أخرى فإن المدن الجديدة فتحت المجال لإيجاد أنواع جديدة من الزعاما ت، ويهمنا على وجه الخصوص تبلورالجماعات الدينية الإسلامية وانجذاب الأفراد إليها كنوع من أنواع التكيف والحياة الاجتماعية الجديدة ، حيث يجد الفرد في التجمع مع الرفاق خلاصًا من الغربة في المدن مع وجود أنواع من الصداقة والزمالة والتجمع والمشاركة في الصلاة والرقص والأناشيد الدينية والاحتفالات وحلقات الذكروغيرها.

ومن الملاحظ، أن الإسلام أكثرانتشارًا في المدن عامة، بينما ركزالمبشرون المسيحيون جهودهم ولا زالوا يركزون على المناطق النائية ـ الريفية والغابا ت ـ بين من لم يمسّوا كثيرًا بالحياة الحضرية ولم يتعرضوا للأفكاروالآراء المتجابهة .وعليه ففي الوقت الذي جذبت فيه المدن الشباب بعيدًا عن السلطة التقليدية، ومن ثم بعيدًا عن ممارسة الدين التقليدي، عمل هؤلاء على مواجهة التحدي الذي واجههم في المدن بالانتماء للجماعات الدينية الإسلامية المنظمة والتي لعبت دورًا مهمًا في التكيف الاجتماعي للشباب الباحث عن العمل، ومثل هؤلاء يعملون بعودتهم للزيارة في مناطقهم المحلية كحَمَلة لنشرالإسلام.

فمن الملاحظ أنه في الوقت الذي ركزت فيه الإرساليات جهودها على المناطق الريفية، فإن الإسلام تغلغل في الريف عن طريق التجاروالدعاة المحليين الذين كانوا في كثيرمن الأحيان أكثرتقبًلا وتأثيرًا من الإرساليات التبشيرية.

الهوامش:

١ .تجدر الإشا رة إلى أن النسبة المئوية للمسلمين في أفريقيا هي ٥١،٧٪ وأن عدد المسلمين ٢٤١،٤٥٤،٠٠٠ من مجموع سكان أفريقيا البالغ ٤٦٦،٩٧٨،٥٠٠.

٢ .وتعد اليهودية محدودة في أفريقيا من حيث العدد، وهي ليست دين دعوة عالمية ولا تقوم على الدعوة العالمية والتبشير للدخول بها.

٣ .يلاحظ أن نسبة الـ٨٩٪ الباقية لم تعرف تأثيرات مسيحية بالمرة، وإن معظم الجماهير مسيحيون بالاسم.

٤ . من أهم الظواهر الجديرة بالدراسة عن المسيحية في أفريقيا هو تبلور الحركات الدينية التي أصبحت مستقلة عن أي كنيسة مسيحية أجنبية عالمية ـ وهي تمثل فرقا أو طوائف دينية مسيحية متمزية. فكلمة كنيسة لا يقصد بها مجرد مكان للعبادة ولكنها تعني مذهب أو طائفة. وتمثل هذه الظاهرة محاولات أفرقة المسيحية، ويطلق عليها مسميات مختلفة مثل: "الكنائس الانفصالية" أو "الحركات الانشقاقية" أو الكنائس الإثوبية" أو "الكنائس المتمردة" أو "الكنائس الصهيونية". ولكن أكثر الأوصاف دقة هو الذي يعبر عنها بالاستقلالية وهو الذي أصبح أكثر انتشارًا وأكثر تقبلاً من جانب الدارسين ومن جانب الأفريقيين أنفسهم.

٥ .وهو Jacobus Capiteir الذي كان تابعًا لسيد هولندي ارسله للدراسة في جامعة "لايدن" بهولندا، حيث تخرج عام ١٧٤٢.

٦ .من خطابه الوداعي قبل سفره كقنصل لبريطانيا. وكان لفنجستون تابعًا لجمعية لندن المرسلية (١٨٣١ـ١٨٥٧) وقد اخترق أفريقيا من الغرب إلى الشرق بجوار "نهر الزمبيزي" ثم عاد لبريطانيا ليروي ما رآه.

٧ .وهذه الأسرار السبع هي: سر المعمودية، سر الميرون "المسحة المقدسة"، سر الافخارستيا (سر الشكر أو العشاء الرباني)، سر التوبة، سر مسحة المرضى (او سر الزيت المقدس)، سر الزيجة، وسر الكهنوت (سر الدرجة أو الشرطونية).